



الأدب ما تأخذ به نفسك من محمود الخصال،
وكريم الفعال، وهو - كذلك - فن القول الجميل،
شعرا كان أم نثرا. فالأدب - بهذا النظر - أدبان،
ومن كليهما أخذ الدكتور راشد المبارك حظا وافرا.
أما أدب النفس فلا يعرفه في أديبنا إلا من
عاشه عن قرب وطالت عشرته له، وأنا واحد من
هؤلاء؛ إذ تجاوزت صحبتي له ثلاثين سنة رأيت
فيها في غضبه ورضاه، وصحته وسقمه، ومنشطه
ومكرهه؛ فوجدت فيه مجموعة من المزايا هو فيها
نسيج وحده؛ ولا يملك من عرفه حق المعرفة إلا أن
يحلّه من نفسه مكانة خاصة، سواء وافقه الرأي أم
خالفه.

لقد زرع أبو بسام في قلب كل شخص عرفه
شجيرة ورد، سقاها: تعهدا وودا، وتفقدنا ورفدا.



من أدب الدكتور راشد المبارك

هذه لمحة عن أدب النفس الذي
عز في هذه الأيام وفي سواها، والذي
وجدت من حق الوفاء عليّ أن أقدم
به بين يدي حديثي عن أدب القول.
أما أدب القول، الذي هو شعر
ونثر؛ فقد تألق بساحته شاعرنا
حتى ليصدق فيه قول أخي
الشاعر المبدع الدكتور عبد الكريم
المشهداني في قصيدته «اليراع
المنزهر»:

تدفق كما شئت يا شاعر

ففيك استوى الناظم النائر



د. أحمد البراء الأميري - سورية

ولم لا يذل عصي الكلا
م وأنت به اللاعب الماهر
وتستسلم الشرذ النافر
ت كما قاد مأسوره الأسر
فبأما نظمت وأما نثرت
فأنت مروّضها الساحر
نثر الدكتور راشد المبارك نوعان:
أدبي، وعلمي. أما الأدبي فأضرب
عليه مثالين موجزين - وحسبك
من القلادة ما أحاط بالعنق - وهما
ما كتبه - على البديهة - إهداء لي
على كتابه «قراءة في دفاتر مهجورة»

وديووانه الأول «رسالة إلى والدته»:

قال في الأول: أخي أبا عمر: هذه الصفحات صدى استبق - هذه المرة - الصوت الذي بعثه، وهو صوت قلة من الرائيين أنت واحد منهم، مع الود والتحية.

وقال في الثاني: الأخ الكريم أبو عمر: خفقات جناح، إذا قدر لها أن تلامس بعض أوتارك فقد وصلت إليك! وأما ما سميت - تجاوزا - النشر العلمي فهو سائر كتاباته التي تقرؤها في كتبه: هذا الكون ماذا نعرف عنه؟ وفلسفة الكراهية، وشعر نزار بين احتباسين، وقراءة في دفاتر مهجورة، وهو الذي قال في تقديمه شيخنا الكبير محمد الغزالي رحمه الله ما نصه:

«عرفت الدكتور راشد المبارك من سنين، ومنذ عرفته حرصت على صحبته ومجالسته وقراءته، فهو عقل كبير، وخلق رحب، والطريف أنه أستاذ في علوم الكون والحياة، ولكنه مكن في الأدب العربي، خبير بشعره ونثره، ويظهر ذلك في أسلوبه الذي يتضمن عبارات فنية من مصطلحات الفيزياء، والكيمياء، ولعله يظهر قبل ذلك في منطقته العقلي حين يعالج قضايا مختلفة بين الدين والحضارة والتاريخ...».

وقد صدق الشيخ الغزالي - رحمه الله - فالمنطق العقلي لأي كاتب يظهر في أسلوبه: ذلك أن الجمل الموجزة البسيطة، غير الجمل الطويلة المركبة، والأفكار الواضحة اليسيرة غير الأفكار الغامضة العسيرة على فهم القراء العاديين.. وأعطي مثالا واحدا على الجمل الطويلة المركبة هو السطور التي قدم بها أديبنا لمقاله: «دعوة إلى قراءة في دفاتر مهجورة».

قال: «إذا بدا نفرد، أو أفراد، أن في هذا الفصل نبرة حادة، أو تصورا يصدم ما ألفت أنفسنا، من دعة فكر صنعها الإلف الطويل لنمط واحد من التعليل والتحليل، يتكرر في ديمومة وإلحاح فيما يقرأ ويشاهد ويداع، فليست الحدة ولا الإيلام مقصدا من مقاصد

هذا الفصل، ولا غاية من غاياته، ولكنها دعوة للنفس وللآخرين إلى محاولة لفهم بواعث ما يعاينيه العالم الإسلامي، والوطن العربي، وتشخيص لسبب ما هو عليه من حال، ليس مظهرا من مظاهر الصحة، ولكنه عرض من أعراض مرض لم تجد قواميس الطب له تعريفا». أنتقل الآن للحديث عن الشعر الذي يشكل الشطر الأعظم من أدب الدكتور راشد المبارك، والذي ضمه ديووانه: «رسالة إلى ولادة» بجزأيه الأول والثاني، لأقتبس منه بعض القبسات، أهد لها بالحديث عن مفتاح شخصية الشاعر التي تعيننا على فهم شعره.

كان من عادة الأستاذ عباس محمود العقاد - رحمه الله - عندما كتب (العبقريات) أن يعقد في الحديث عن كل عظيم فصلا بعنوان: «مفتاح شخصيته»، وكان مما قاله وهو يتحدث عن عظمة سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في تعريف هذا المفتاح: «مفتاح الشخصية هو الأداة الصغيرة التي تفتح لنا أبوابها، وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها، وهو كمفتاح البيت في كثير من المشابه والأعراض، فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة، فإذا عالجته بها، فلا حصن ولا أغلاق!».

وأستدرك على العقاد - رحمه الله - فأقول: إن النفس البشرية أغنى وأوسع من أن يفتح أغلاقها مفتاح واحد، بل البيت الصغير لا يفتح أبواب غرفه المتعددة مفتاح واحد، ناهيك عن خزائنه وأدراجيه، وأسراره وأستاره، فكيف بالإنسان؟!

لكن هذا الاستدراك لا يمنعني من الاستفادة من الفكرة الذكية للعقاد في حديثنا عن الدكتور راشد المبارك.

إن من أهم مفاتيح شخصية الدكتور راشد المبارك التي تفتح لك أبوابها، وتلقي الضوء على شعره هو حب الجمال في كل وجوهه: في المرأة، والزهرة، واللون، وفي التعبير البارع، والتصوير الدقيق.



وتأتي قصيدة «عطش نهر» ظلماً مختلفاً عن ظلماً «فتون» يغلب فيها ظلماً النفس على ظلماً الحس، تأتي في أربعة عشر بيتاً ختامها هذا التوسل:

صبي بهاك بقلب لا ارتواء له

وأطفئي فيه ما لاقى من الحرق

«القبسة الثانية: الحس المرهف:

قلنا: إن من مفاتيح شخصية الدكتور راشد المبارك: إحساسه بالآلام الضعفاء والمظلومين، وهذه صفة يراها بالعين المجردة كل من رأى صاحبها، ويراهها بعين الذوق كل من قرأ شعره.. أليس هو القائل:

أنا نشيج الأسى في صدر من ظلّموا

أنا أنين الشجي في قلب من نُكبوا

والقائل عن نفسه في «وصيته» إنه كان:

يكتوي بالدمع في عين يتيّم

لم يداعبه حنان من حميم

فقد الأم التي تحنو عليه

والأب السمع الذي.. يرنو إليه

وإنه كان:

يكتوي بالهم في قلب سجين

غاب عن أم وعن طفل سنين

نسي الشمس فدنياه ظلام

عصرته عضة القيد وقبر

وسياط تآكل الجسم وأسّر

ذنبه: أن لم يكن مغتبطاً

بسياط الظلم من حاكمه

بفتاوى الجور من صاحب فتوى

يبسط الكف لتقبيل مريد

يخفض الرأس لحفّات السلا

طين ومن خوف وعيد!!

وإذا كان هذا الإحساس كاوياً من أجل طفل أو سجين،

فهو من أجل الأمة: حُرّق، وتفجع، وألم وغضب..

ومفتاح آخر لا يقل أهمية عن الأول هو (الإحساس المرهف) بالآلام الآخرين ومعاناتهم إحساساً يكدر عليه صفوه، ويشعره بالذنب كأنه المسؤول عن معاناتهم وآلامهم.

إن استحضار هذين المعنيين يعيننا على الغوص في أعماق شعره، غوصاً لا يقدر عليه إلا الخبراء في صيد اللآلئ، فشعره ليس للخاصة دائماً، بل هو لخاصة الخاصة أحياناً، عندما يعمّن في الغوص أو التحليق.

«القبسة الأولى: العطش:

إن الطبيعة تجنح إلى الارتواء، لكنك عندما تقرأ «العطش» في شعر أبي بسام تحن إليه، آملاً أن تنطفئ نار ظمئك بالسبب الذي أورى نار عطشه؛ وهذا ليس استنتاجاً يتعب القارئ في الوصول إليه، بل هو التعريف الذي اختاره الشاعر لديوانه عندما قال عنه: هذه الصفحات هي:

خفقات من جناح عاشق

أيكة تخضل في بوح كنار

قطع العمر حنيناً ظامئاً

لندى، ورد إلى ذوب نضار

باحثاً في عطش، في لهفة

عن ينابيع، وعن ضوء نهار

يا حنين الضوء أظلمات الظما

في حشاشاتي، وأبعدت المدار

ومع أن الإبحار في هذا التيار كثير الأخطار، فإني

أجد أن لا بد لي من الإشارة إلى قصيدة (مفاتن) التي

يخاطب الشاعر صاحبها بقوله:

دنيا من الشهوات الحمر صاحبة

تجتاح جسمك تغلي في الشرابين

ومطلعها:

عيناك تسلب لبي، تستثير دمي

تفجر الرغبة الخرساء، تغريني

تغوي ابتهالات قلبي، تستبد بها

بعاصف من فتون الحسن مجنون



من جلسات أندية المبارك في الرياض

جاء في قصيدة «أرض الهوان» التي نظمت بعد قصف الطائرات اليهودية مواقع عربية، دمرت فيها البيوت وقتلت ساكنيها:

توزعتنا الأعادي شلو معركة
شلّ الخنا في وغاها السيف والقلما
قد أحمّد الجور فينا كل نخوتنا
وقد طوى الذل فينا العز والعلما
لو كان للذل يوماً من يعلمه
لورثتنا الليالي راية وسما
لكن هذا الهجاء المر المظلم لا يلبث أن يتحول
إلى رجاء حلومشرق:

لن تستقيم على ذل جوانحننا
ليلنا ألف صبح يهزم الظلما
إننا وإياك، والأيام شاهدة
ليعلم الدهر أننا أعز حمى
رحم الله أبا ريشة! إذ التاريخ يعيد نفسه، والشاعر
بالشاعر يذكر، والجرح بالجرح يذكر، رحم الله أبا
ريشة، القائل عام ١٩٤٥م في قصيدته التي ألقيت في
ذكرى المولد النبوي الأغر، في الأسبوع الذي أعلن فيه
الرئيس روزفلت أن الميثاق الأطلسي، كفيل الحريات
الأربع، لا أثر له في الوجود:

ويا نجيعاً على التذكّار منسرباً
هل من ضماد يرد الجرح ملتماً
تلك الربوع التي نام الفخار بها

لم تلق من حولها إلا الذي هدمها
وللعلوج على أنقاضها سرر
لو استطاعت لأهوت فوقهم رُجماً
وما المواثيق إن فاه القوي بها

ونصب الختل في أقداسها حكماً؟
ما كان أغناه عن تزوير غايته
من يحمل السيف لا يبري به قلماً!

«القبسة الثالثة: براعة التصوير وبراعة التعبير:

إذا كان للشعر العالي ركنان لا ثالث لهما؛ فإن
براعة التعبير وبراعة التصوير هما في يقيني هذان
الركنان!

أما المقصود ببراعة التصوير فواضح، وأما براعة
التعبير فأعني بها: جمال التركيب، وسلاسة اللفّة،
وعذوبة الأسلوب (التي أسهمت جميعها في صناعة
عبقريّة البحّري الشعرية حتى قيل عن شعره: إنه
كسلاسل الذهب، وأراد أن يشعر فغنى!).

وقبل تجلية هذه القبسة بأمثلة أستحسن أن أورد
ما قاله صديقنا الشاعر اليمني المبدع الأستاذ قاسم
ابن علي الوزير في تقديمته للجزء الأول من «رسالة
إلى ولادة» وهو يتحدث عن التصوير في شعر الدكتور
راشد المبارك:

«والصورة فيه واضحة في عمق، عميقة في وضوح؛
يحول وضوحها دون تحولها إلى ألفاظ، ويمنع عمقها
السطحية من الاقتراب منه، أو تسلل التقريرية
إليه.

«ظلالها ندية موحية. وحرارتها لازعة ملهمة،
وهي تجيء وتروح مع المعاني مانحة إياها أبعاداً
أعمق، مرتادة بها آفاقاً أعلى، فما تزال الدهشة



يشب هواها والجوى في مفاصلي

لقد زرعت في كل عضو لها قلباً!

إن شعر الدكتور راشد المبارك غني بالصور، وهي صور متفردة مرسومة بريشة خاصة وأصباغ خاصة، فهو حين يرسم قصائده يغمس ريشته بالمداد، والطر، وبسلاف من العواطف، والعواصف، وربما يمزجها ببعض الدم فيخرج ذلك اللون العنيد، (كما يقول الأخ الشاعر عصام الغزالي في قصيدته: النزف على الأزرق):

سأغمس ريشتي بدم ولون

فيخرج منها اللون العنيد!

هذه لمحة موجزة عن براعة التصوير أتبعها بأخرى عن براعة التعبير:

يعلم كل من عرف الدكتور راشد المبارك إعجابه بالشاعرين الكبيرين بدوي الجبل، وسليمان العيسى، وبمدرسة الرحابنة، وصوت فيروز، وطبيعة لبنان، إعجاباً خاصاً مضافاً إلى إعجابه بكل شعر جميل وأدب وسيم: يحفظه، ويتملاه، وينشده.. وليس بمستغرب أن تظهر ملامح ذلك الإعجاب في شعره، فإذا أردت أن تضع شاعرنا في إحدى قائمتين اثنتين أولاهما تضم: المتنبي، وأبا تمام، والبارودي مثلاً، والأخرى تضم: سليمان العيسى، وبدوي الجبل، والأخطل الصغير... فأنت - لاشك - ستضعه في القائمة الثانية لأسباب يكفيها منها في هذا المقام: سلاسة التعبير، وأناقة الألفاظ، وعذوبة اللغة.

استمع إليه مخاطباً الشاعر المهجري الراحل زكي قنصل، وتمتع بعذوبة اللغة، وانسياب اللحن، وحلاوة القافية:

تبرج الروض وافترت مراشفه

عن قبلة عتقت فيها حُمَيَّاهُ

تهزك متجددة مع كل قراءة، تكشف، خبايا مذخورة من متع «السمع والبصر» وهزة الاكتشاف لأفانين شتى من معاني العاطفة الصادقة التي ما تنفك تتوالد..

ولله درُّ قاسم الوزير في قوله: «من متع السمع والبصر» كيف اختزل صفحتين في كلمتين! فمتع السمع هي ديباجة الشعر، ولغته، وتركيبه، وموسيقاه، ومتع البصر هي الصور التي تتجلى لعين البصيرة النافذة والذائقة المدربة. ولله - كذلك - درُّ من وصف تصويره وتعبيره بهذين الوصفين فكانا حقاً وصداقاً.

إن أرقى وصف لجمال حسناء بارعة الجمال لا يرقى إلى التملّي من النظر إليها، وكذلك الثناء على الشعر الجميل لا يعدو أن يكون حاجزاً بينك وبينه.. فلنتأمل بعض صور شاعرنا المبدع تأملاً تسمح به ثواني القراءة المستأنية، ولا توفيه حقه إلى إدامة النظر مثني وثلاث ورباع:

أفدي العيون التي يلهو بها السهرُ

ويغتلي الشوق فيها، يطفح الضجرُ

تحجر الدمع في أفاقها فرقا

من أن يبوح بما في صدرها النظرُ

يا لؤلؤ الحسن، دقق الضوء رنقه

قبل المغيب انسكاب اللون في الشفقِ

ويا نضارة زهر ماج في مرج

وعودة الرفة الجذلى إلى الحديقِ

نلم كل لذات الحياة على

شفاهنا، تلتقي شوقاً وتعتذرُ

يعاصر الشوق روحينا فيمزجها

حتى ليتحد المنظور والنظرُ!!

إذا ما التقينا صار للصمت ضجةٌ

تصبح لهمس الهدب قد عانق الهدباً

ثم اقرأ بدوي الجبل:
لا تسلها فلن تجيب الطلول
المفاوير مثخن أو قتيل
موحشات يطوف في صمتها
الدهر فللدهر وحشة وذهول
غاب عند الثرى أحباء قلبي
فالثرى وحده الحبيب الخليل
وسقوني على الفراق دموعي
كيف يروى من الجحيم الفليل؟
وبعد؛ فهذه ثلاث «قبسات» من أدب
الدكتور راشد المبارك، ليست دراسة له، ولا
محاولة لتحليله والإحاطة بخصائصه. إنها
مجرد قبسات تقرأ..



ولسائل أن يسأل: أين تضع الدكتور راشد
المبارك بين الشعراء؟ وأقول: الجواب موجود في آخر
الجزء الثاني من الديوان الذي يضم ثلاث رسائل شعرية
من أبي بسام إلى الشاعر العملاق سليمان العيسى،
وجوابين من أبي معن عليها. اقرأ الرسالة والرد وتساءل
معي: أليس الشاعران في هذه القبسات فرسي رهان؟
قال أحدهما:

يا ابن الصهيل المستريح على الشذا
زمني بدارك جنة وعبير
قطرتم أغلى الرحيق شمائلًا
وشربت حتى اخضوضر التعبير
وقال الآخر:

خمرة تلك التي رقرقتها
أم سناً رَقَّ هوى فانبتقا
كلما حدقت في لآلئها
خطفت عيني وصارت حدقا
إن لم تعرف من قال ماذا، وقلت: نعم، هما فرسا
رهان فقد أجبتك عما تريد! ■

ما قيمة النغمات البيض تطلقها
قيثارة الوجد أضناه وأشجاه
إن لم يصنها بيان الشعر قافية
بها من الألق القدس أسناه
ثم اقرأ بدوي الجبل:

ليت الذين وهبناهم سرائرنا
في زحمة الخطب أغلوا ما وهبناه
ولا وفاء لقلب حين نؤثره
حتى تكون رزاينا رزاياه
قد هان حتى سمت عنه ضغيتنا
فما حققدنا عليه، بل رحمناه
واقراً راشد المبارك:

موجع أن يعالج الجرح جرح
وغليل يطفي لظاك غليل
جرح قلبي القديم ما زال
مخضرا بأوجاعه التي لا تزول
في الثرى من حشاشة القلب أمشاج
وفي القلب دهر حزن طويل